عيّنة من الكتاب

(للتصفح والاطّلاع)

بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

مغامرة راكِبَة الدرّاجَة

وثلاث قصص أخرى

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لأربع من قصص
شيرلوك هولمز المنشورة أول مرة عام ١٩٠٣/١٩٠٤

The Adventure of the Empty House
The Adventure of the Norwood Builder
The Adventure of the Dancing Men
The Adventure of the Solitary Cyclist

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠

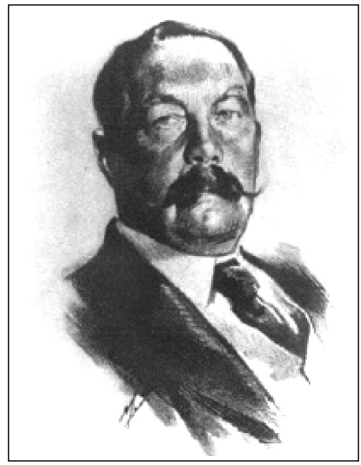

آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطَرَّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلّات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القِرْمِزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدَّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلَّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنْغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البُويِر (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولَقَبها «سيرْ» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته

وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِيةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغاثا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قَتل» دويل بطلَه شيرلوك هولمز، لكنه واجهَ احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القِرْمِزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشُغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يَحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولْيِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقّاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنْسيّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية

أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفِسور تشالنجر (أشهرها رواية «العالَم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هَليدي وأَلِكْ بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هَوارد إلْكوك وفرانك وايْلز وألفرِدْ جِلبرْت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كولِيرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردرِك دورْ ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش ورِتشارد غوتشمت ووليَم هايْد.

* * *

عودة شيرلوك هولمز
(١)

مغامرة المَنزل الفارغ

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سْتراند» الشهرية
في عدد تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٣

أثار مقتل رونالد أدير في ربيع عام ١٨٩٤ اهتمام لندن كلها، حيث أحاطت بمقتله ظروفٌ غريبة جداً وغير قابلة للتفسير. وقد عرف العامة بعض التفصيلات التي وردت عن الجريمة في تحقيقات الشرطة، ولكن تم التكتم على كثير من المعلومات المتعلقة بالحادثة. والآن فقط، بعد ما يقرب من عشر سنوات، سُمح لي بأن أكشف تلك الحلقات المفقودة من سلسلة الأحداث الغريبة.

كانت الجريمة مهمّة في حد ذاتها، ولكن تلك الأهمية لم تَعنِ لي شيئاً مقارَنةً بالخاتمة الغريبة، حيث كانت من أعظم الأحداث التي صادفتُها صدمة وإثارة للدهشة في حياتي المليئة بالمغامرات. وحتى الآن، وبعد كل هذا الوقت الطويل الذي مضى على الحادثة، فإنها ما زالت تثير انفعالي كلما فكرت فيها، وما أزال أشعر بذلك الفيضان المفاجئ من البهجة والعَجَب وعدم التصديق الذي ملأ عقلي.

ولتسمحوا لي أن أطالب أولئك الناس (الذين أظهروا بعض الاهتمام بتلك اللمحات التي كنت أظهرها لهم من أفكارِ وأفعال ذلك الرجل الرائع) بأن لا يلوموني لأنني لم أعرض عليهم معلوماتي، حيث إنني كنت سأعتبر ذلك واجبي الأول لو لم أكن مقيداً بمنع قاطع منه شخصياً، منع لم أُعفَ منه إلا قبل أيام قليلة فحسب.

* * *

لا بد أنكم تتوقعون أن علاقتي الوثيقة بشيرلوك هولمز وصحبتَه الطويلة قد زادت من اهتمامي بعالَم الجريمة، وأنني لم أتوقف -بعد اختفائه- عن متابعة المشكلات المختلفة التي ظهرت في حياة الناس، بل إنني حاولت استخدام طرقه أكثر من مرة لإشباع فضولي الخاص، ونجحت في ذلك إلى حد ما. ولكنّ أيَّ حادثة لم تجذبني بالقدر الذي صنعته مأساة رونالد أدير، فحين قرأت عن الدليل الذي قاد إلى تجريم شخص مجهول بالقتل أدركت حينها -أكثرَ من أي وقت مضى- مدى فداحة الخسارة التي تكبدها المجتمع بموت شيرلوك هولمز، فقد كنت متأكداً أن بعض النقاط ستروق له في تلك القضية الغريبة، وأن المحقق الجنائي الأشهر في أوروبا كان سيعزز جهود الشرطة، بل ومن المحتمَل أنه كان سيسبقهم في الحل بقوة ملاحظته المدربة وعقله اليقظ. وقد أمضيت اليوم كله وأنا أقلّب القضية في ذهني في أثناء جولاتي على المرضى، فلم أجد أي تفسير مقنع، وخوفاً من أن أكرر الحكاية مرتين سألخص الحقائق التي بات يعرفها الناس مع انتهاء التحقيق.

رونالد أدير هو الابن الثاني لإيرل مايْنوث الذي كان حاكماً لإحدى المستعمرات الأسترالية، وكانت والدة أدير قد عادت من أستراليا لتُجري عملية في عينيها، وأقامت هي وابنها رونالد وابنتها هيلدا معاً في المبنى رقم ٤٢٧ بشارع بارك لين. وقد كان محيط الشاب من أرقى فئات المجتمع، ولم يكن له أعداء أو عادات سيئة على قدر ما هو معروف، وكان قد خطب الآنسة إديث وُدْلي من كارستيرز، ولكن الخطبة فُسِخت بالاتفاق

بين الطرفين قبل الحادثة بعدة أشهر، ولم يَبدُ أن الفسخ قد خلّف أية مشاعر عدائية عند الطرفين. أما عن علاقاته الأخرى فقد تحرك الرجل في دائرة ضيقة وتقليدية، وبالرغم من حياته الأرستقراطية غير المعقدة فقد جاء موته بشكل غريب وغير متوقع فيما بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة والثلث في ليلة الثلاثين من آذار (مارس) سنة ١٨٩٤.

كان رونالد أدير مولَعاً بلعب الورق، حيث كان يلعب باستمرار ولكن دون أن يخاطر بشكل يؤذيه، وكان عضواً في نوادي بولدْوِن وكافينديش وباغاتيل للعب الورق، وقد أمضى تلك الليلة في لعب الورق في النادي الأخير، ولعب فيه أيضاً بعد ظهر اليوم نفسه. وأفادت شهادات الذين كانوا يلعبون معه، وهم السيد موراي والسير جون هاردي والكولونيل موران، بأن الخسارة كانت متساوية بين اللاعبين في ذلك اليوم، ومن المحتمَل أن يكون أدير قد خسر خمسة جنيهات لا أكثر، ولكن بما أن ثروته كبيرة فإن مثل تلك الخسارة لا تؤثر فيه بأية طريقة، وقد كان يلعب كل يوم في أحد النوادي، ولكنه كان لاعباً حذراً. وجاء أيضاً في الشهادة أنه كسب من غودفري ميلنر واللورد بالمورال نحو أربعمئة وعشرين جنيهاً مشاركة مع الكولونيل موران في جلسة أخرى قبل بضعة أسابيع من الحادثة، وكان ذلك هو تاريخ رونالد أدير الحديث كما ورد في التحقيق.

عاد رونالد أدير من النادي ليلةَ الجريمة في الساعة العاشرة تماماً، وكانت أمه وأخته في الخارج تقضيان السهرة

عند إحدى القريبات، وقد صرّحت الخادمة بأنها سمعته وهو يدخل الغرفة الأمامية في الطابق العلوي، وهي غرفة يستخدمها أدير في العادة غرفةً لجلوسه، وكانت قد أشعلت النار هناك ثم فتحت النافذة بسبب الدخان. ولم يُسمَع أي صوت من الغرفة حتى الساعة الحادية عشرة والثلث، وهو الوقت الذي عادت فيه السيدة ماينوث وابنتها. وقد رغبت الأم في رؤية ابنها قبل النوم فحاولت الدخول إلى غرفته، ولكن الباب كان موصداً من الداخل، ولم يستجب أحدٌ للطرقات والصرخات فقاموا بطلب المساعدة لخلع الباب، وعندها وجدوا الشاب المسكين بالقرب من الطاولة وقد اخترقت رأسَه رصاصة، ولكنهم لم يجدوا أي سلاح من أي نوع في الغرفة، ووجدوا ورقتين نقديتين من فئة عشرة جنيهات على الطاولة، بالإضافة إلى سبعة عشر جنيهاً من الذهب والفضة، وكان المال مرتباً في كومات صغيرة حسب الفئة، كما وجدوا على قطعة من الورق بعض الأرقام وأمامها أسماء بعض النوادي، فاستنتجوا أنه كان يحاول حساب خسارته ومكاسبه في لعب الورق.

زاد الفحص الدقيق لملابسات القضية من تعقيدها، فقد بقي السبب الذي جعل الشاب يغلق الباب من الداخل مجهولاً. ربما أوصده القاتل ليهرب بعد ذلك من النافذة، ولكن المسافة إلى الأرض كانت نحو سبعة أمتار، كما أن أي آثار لم تظهر في الخارج على الأرض التي غطتها زهور نبات الزعفران المتفتحة تحت النافذة، كما لم يجدوا أي علامة على شريط الأعشاب الضيق الذي يفصل المنزل عن الطريق،

فترجّح يكون الشاب قد أغلق الباب بنفسه.

ولكن كيف قُتل؟! لم يكن من الممكن أن يتسلق أحدٌ النافذةَ دون أن يخلّف وراءه أثراً ما. وإذا افترضنا أن القاتل أطلق النار عبر النافذة فلا بد أن يكون بارعاً جداً ليُحدِث مثل تلك الإصابة المميتة بمسدس. ثم إن شارع بارك لين مأهول تماماً وفيه موقف لعربات الأجرة على بعد مئة متر من المنزل، ولم يسمع أحدٌ صوتَ الطلقة. بالرغم من كل ما سبق كان في الغرفة شخص ميت، وثمة رصاصة اخترقت رأسَه من جهة وخرجت من الجهة الأخرى، فسببت ضرراً بالغاً من النوع الذي تسببه الرصاصات ذات الرأس غير الحاد التي تُستعمَل في المسدسات الدوّارة، فإنها تحدث جرحاً يؤدي حتماً إلى الموت الفوري.

كانت تلك هي ملابسات لغز بارك لين الذي زاده غموضاً غيابُ الدافع للقتل، حيث لم يكن للشاب أدير -كما قلت سابقاً- أي أعداء معروفين، بالإضافة إلى أن أحداً لم يمسّ الأموال والممتلكات الثمينة التي كانت في الغرفة.

* * *

رحت أقلّب تلك الحقائق في عقلي طَوال اليوم في سبيل تكوين نظرية توفّق بينها جميعاً، واجتهدت محاولاً الاهتداء إلى أضعف النقاط وأقلها تماسكاً، حيث كان صديقي الراحل شيرلوك هولمز يقول إنها نقطة البداية لكل تحقيق، وأعترفُ بأنني لم أحقق أي تقدم يُذكَر.

وفي المساء أخذت أتمشى عبر المتنزّه، حتى وجدت نفسي في نحو الساعة السادسة في شارع أكسفورد في آخر بارك لين، حيث أرشدني بعض المتسكعين -الذين كانوا يحدقون جميعاً باتجاه نافذة معينة- إلى المنزل الذي جئت لأراه. كان هناك رجل طويل نحيل يضع على عينيه نظارات داكنة، وقد شككت بشدّة في أن يكون مخبراً في ملابس مدنية يقوم بعرض نظريته الخاصة، فيما التفّ حولَه الآخرون ليستمعوا لما يقوله، فاقتربت منه قدر استطاعتي، ولكني ابتعدت ثانية باشمئزاز حين وجدت ملاحظاته سخيفة. وفيما كنت أفعل ذلك اصطدمت برجل عجوز مشوّه كان واقفاً خلفي فأوقعت بعض الكتب التي كان يحملها، وأذكر أنني لاحظت عنوان أحدها حين التقطتها. كان العنوان هو «أصل الأشجار»، فخطر ببالي أن ذلك الرجل المسكين مولَع -فيما يبدو- بجمع مجلدات الكتب الغريبة، إما من باب التجارة أو الهواية. حاولت الاعتذار عن الحادثة، ولكن بدا من الواضح أن تلك الكتب التي تعاملتُ معها بخشونة -لسوء الحظ- كانت قيّمة جداً في نظر مالكها، فقد استدار على عقبيه مزمجراً بازدراء، ورأيت ظهره المحني وسوالفه البيضاء حين اختفى في الزحام.

لم توضح مراقبتي الدقيقة للمنزل رقم ٤٢٧ المشكلة التي كنت مهتماً بها. كان من السهل تماماً أن يدخل القاتل الافتراضي إلى الحديقة، حيث يفصل المنزل عن الشارع سور منخفض وسياج لا يزيد ارتفاعهما على متر ونصف متر، ولكن كان من المتعذر كلياً الوصول إلى النافذة لعدم وجود أنابيب

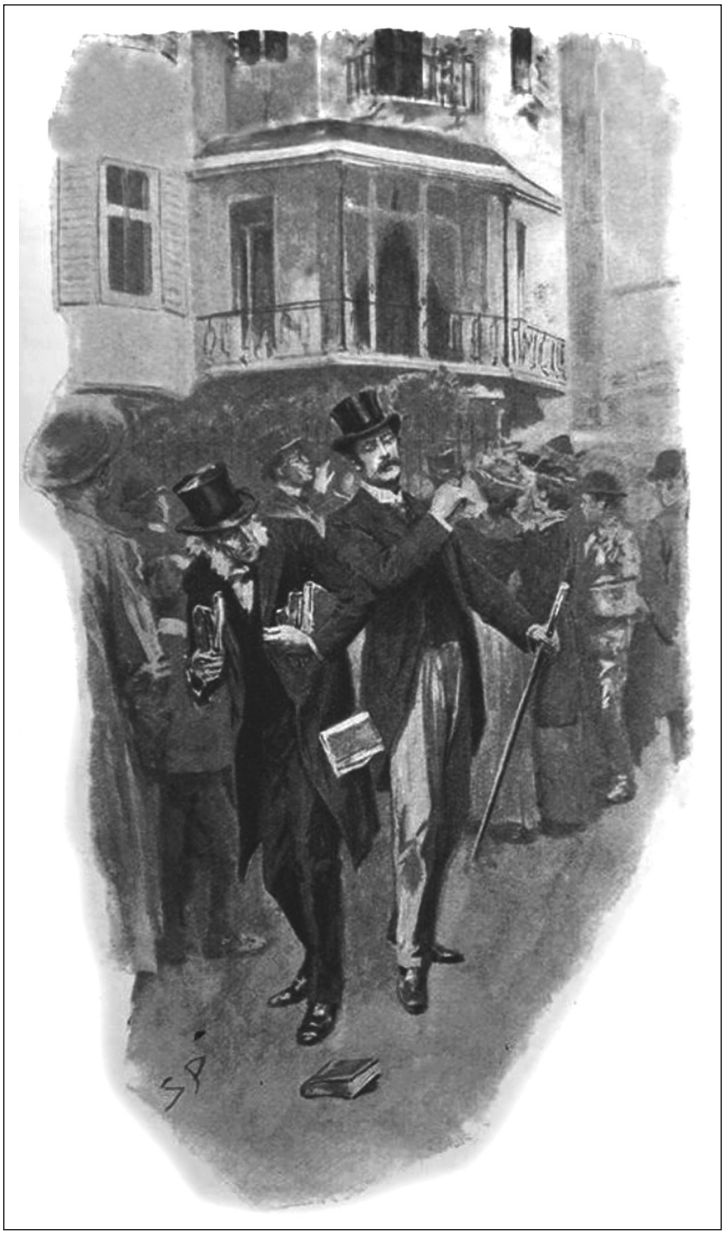

رسم سدني باجيت (١٩٠٣) Sidney Paget (1903)

مياه أو أي شيء آخر يساعد أكثر الرجال نشاطاً على التسلق، فعدت إلى كينسنغتون وأنا أكثر حيرة مما ذهبت.

* * *

رسم ستانلي آرمْسترونغ (١٩٠٥) Stanley Armstrong (1905)

ما كادت تمضي على عودتي إلى العيادة خمسُ دقائق حتى دخلت الخادمة لتخبرني أن شخصاً يريد مقابلتي، ولدهشتي لم يكن الزائر إلا جامع الكتب الغريب وقد برز وجهه المجعد الحاد في إطار من الشعر الأبيض، وكان يتأبط مجموعة من كتبه الثمينة تحت ذراعه اليمنى.

قال بصوت متحشرج غريب: لقد أدهشتك رؤيتي يا سيدي، أليس كذلك؟

اعترفت بذلك فقال: حسناً، إنني أملك ضميراً يقظاً يا سيدي. عندما رأيتك تدخل إلى هذا البيت وأنا أسير خلفك فكرت أن أدخل لأرى السيد اللطيف المحترَم وأخبره بأنني لم أقصد أي إساءة حين تصرفت بأسلوب خشن إلى حد ما، كما أنني ممتَنٌّ له لأنه التقط الكتب عن الأرض.

قلت: أرى أنك تحمّل الأمر أكثر مما يستحق. ولكن هل لي أن أسأل كيف عرفتني؟

- حسناً، إذا سمحت لي يا سيدي فأنا جار لك، حيث ستجد مكتبتي الصغيرة عند زاوية شارع تشيرش، ويسعدني أننا التقينا، فقد تكون من هواة جمع الكتب، وأنا عندي هنا مجلدات عن الطيور البريطانية والآثار القديمة، والحصول على أي واحد منها صفقة عظيمة. إنك تستطيع أن تملأ تلك الفجوة في ذلك الرف الثاني إذا أخذت خمسة مجلدات، فهو يبدو مفتقراً إلى الترتيب، أليس كذلك يا سيدي؟

التفتّ إلى الوراء لأنظر إلى الخزانة الموجودة خلفي،

وعندما استدرت ثانية وجدت شيرلوك هولمز يبتسم في وجهي!

وقفت على قدمَيّ وأنا أحدق إليه لبضع ثوانٍ بدهشة مطلَقة، وبعد ذلك اسودّت الدنيا في عيني وغبت عن الوعي للمرة الأولى والأخيرة في حياتي، وحينما أفقت وجدت ياقتي مفكوكة وفمي مبللاً بالماء، وكان هولمز ينحني فوق مقعدي. قال بصوت أذكره جيداً: أدين لك بألف اعتذار يا عزيزي واطسون، فلم أظن أنك ستتأثر لهذه الدرجة.

جذبت ذراعه وصحت قائلاً: هولمز! أهذا أنت حقاً؟! هل يمكن حقاً أن تكون حياً؟ أمن الممكن أن تكون قد نجحت في الخروج من تلك الهوّة السحيقة؟

قال: انتظر لحظة. هل أنت متأكد أنك صرت في وضع يسمح بمناقشة الأمور؟ لقد سببت لك صدمة خطيرة بظهوري الدرامي غير الضروري.

قلت: أنا بخير، ولكنني أكاد لا أصدق عينَيّ. يا إلهي! مجرد التفكير في أن تكون أنت من بين كل الرجال واقفاً هنا في مكتبي...

جذبته من كمّه مرة ثانية وأحسست بذراعه القوية النحيلة فقلت: حسناً، أنت لست شبحاً على أية حال. لقد غمرتني السعادة لرؤيتك يا صديقي العزيز. اجلس وأخبرني كيف خرجت حياً من تلك الهوة الرهيبة.

جلس أمامي وأشعل غليونه بنفس أسلوبه المعتاد من

اللامبالاة، وكان يرتدي معطفاً رثاً أسود اللون يصل إلى الركبة كأي تاجر كتب قديمة، مع باقي مقومات تلك الشخصية من شعر أبيض وكومة الكتب التي كان يتأبطها ووضعها بعد ذلك على الطاولة، وقد بدا أكثرَ نحافة من سابق عهده، وأدركت من شحوب وجهه الشديد أن حالته الصحية لم تكن جيدة مؤخراً.

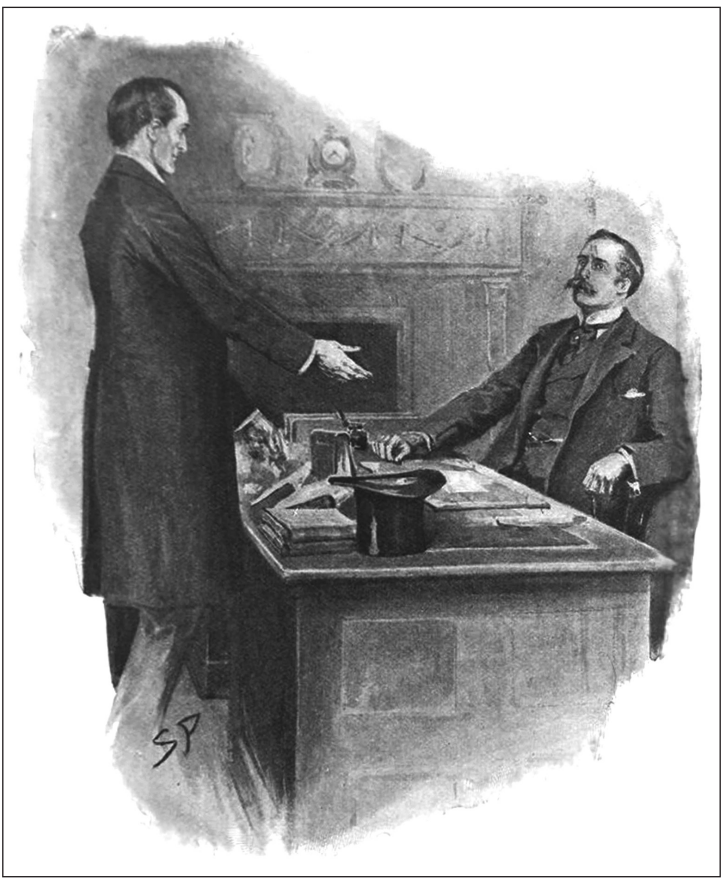

رسم سدني باجيت (١٩٠٣) Sidney Paget (1903)

قال: أنا سعيد لأنني فردت قامتي يا واطسون، فليس من السهل لرجل طويل أن يقلل ثلث متر من طوله لعدة ساعات متصلة! والآن يا صديقي العزيز، فيما يخص تلك التفسيرات التي طلبتها: هل لي أن أطلب مساعدتك؟ أمامنا عمل خطير هذه الليلة، ولذلك أقترح أن أؤجل رواية كل ما حدث إلى أن ننتهي من ذلك العمل.

- إن الفضول يغمرني، ولذلك أفضّل أن تخبرني الآن.

- هل ستأتي معي الليلة؟

- في أي وقت تريد وإلى أي مكان.

- رائع، هذا يذكّرني بأيامنا الماضية. سيكون لدينا الوقت الكافي للغداء قبل الذهاب. حسناً، أما بالنسبة لتلك الهوّة فأنا لم أجد صعوبة شديدة في الخروج منها لسبب بسيط، وهو أنني لم أسقط فيها مطلقاً.

- لم تسقط فيها؟!

- نعم يا واطسون، لم أسقط فيها قَطّ، وإن كانت رسالتي القصيرة لك صادقة تماماً، فقد انتابني بعض الشك في أن نهايتي قد حلّت حين رأيت ما يشبه هيئة الأستاذ الراحل موريارتي تسدّ الممر الضيق الذي يوصل إلى برّ الأمان، وقرأت التصميم العنيد في عينيه الرماديتين، فتبادلت معه كلمات قليلة وحصلت على إذنه اللطيف بكتابة تلك الرسالة القصيرة التي استلمتَها أنت فيما بعد، وكنت قد تركتُها مع

عصاي وعلبة دخائني الفضّية. بعد ذلك سرت على طول الممر -وموريارتي ما يزال يتبعني- حتى وصلت إلى نهايته، فوقفت في مكان متسع، فلم يسحب سلاحاً، بل اندفع باتجاهي مسرعاً وألقى بذراعيه الطويلتين حولي، فقد عرف أن أمره انكشف وكان متلهفاً على الانتقام مني، فترنحنا معاً على حافة الهاوية، ولأن لي بعض المعرفة بالباريتسو (وهي من أساليب المصارعة اليابانية التي أفادتني في مناسبات عديدة كما تعلم) فقد تملصت من قبضته ودفعته بعيداً عني، فأطلق صرخة مرعبة وأخذ يركل بجنون لعدة ثوان، ثم تشبث بالهواء بكلتا يديه، ولكنه هوى رغم كل ما بذله من جهد لحفظ توازنه. وحين أسندت رأسي على الحافة ونظرت رأيته يهوي لمسافة طويلة، ثم ارتطم بصخرة ليرتدّ ويسقط بقوة في الماء.

استمعت بذهول إلى الشرح الذي قدّمه هولمز، ثم صحت قائلاً: ولكن ماذا عن آثار الأقدام؟ لقد رأيت بعينَيّ آثار أقدام اثنين متجهَين إلى الممر، ولم أرَ أية آثار عائدة.

قال: لقد حدث الأمر كالتالي: في اللحظة التي اختفى فيها موريارتي خطر لي أن القدر وضع في طريقي مصادفة سعيدة وغير عادية، فقد كنت أعرف أنه ليس الوحيد الذي أقسم على قتلي، بل يوجَد ثلاثة آخرون على الأقل ستزداد رغبتهم في الانتقام مني بعد مقتل زعيمهم، ولأنهم كانوا من أكثر الرجال خطورة فلا بد أن أحداً منهم سيتمكن مني بالتأكيد. ومن ناحية أخرى إذا اقتنع العالَم كله بأنني متّ فسوف يعمل أولئك الرجال بحرّية ويكشفون أنفسهم بحيث

أنجح في القضاء عليهم إن عاجلاً أو آجلاً، وعندها أستطيع الكشف عن نجاتي وحياتي. لقد فكرت في كل ذلك قبل أن يصل موريارتي إلى قاع شلالات رايْشِنباخ.

وقفت وتفحصت الجدار الصخري الموجود خلفي، وهو الجدار الذي أكدتَ أنت أنه عمودي تماماً، وذلك في وصفك الرائع للقضية الذي قرأتُه باهتمام شديد بعد كتابته بعدة شهور. ولم يكن ذلك صحيحاً تماماً، فقد كانت في الجدار مواطئ صغيرة وقليلة للأقدام بشكل نتوءات. كان الجدار شديد الارتفاع مما يجعل تسلقه حتى قمته مستحيلاً، وكذلك كان من غير الممكن أن أعبر الممر دون أن أترك بعض الأثر. كنت أستطيع أن أعكس أثر حذائي كما فعلت من قبل في مواقف مماثلة، ولكن رؤية ثلاث مجموعات من الآثار تسير في اتجاه واحد كان سيوحي بخدعة. وبالنتيجة وجدت أن أفضل الحلول هو أن أجازف وأتسلق الجدار الصخري، مع أن الأمر لم يكن ممتعاً يا واطسون، فقد هدر الشلال من خلفي، ورغم أنني لست رجلاً واسع الخيال إلا أنني أقسم لك بشرفي بأن الأمر بدا وكأنني أسمع صوت صراخ موريارتي صادراً من الهاوية!

كان يمكن لأي خطأ أن يكون قاتلاً، فعندما اقتُلعَت حزم العشب في يدي أكثر من مرة أو انزلقت قدمي عن شقوق الصخرة المبللة ظننت أنني انتهيت، ولكنني كافحت لأصعد، وأخيراً وصلت إلى رف صخري بعمق متر تغطّيه الطحالب الخضراء، فتمددت براحة تامة دون أن يراني أحد. هناك استلقيت -يا عزيزي واطسون- حين أتيتَ أنت وكل من جاء

بعدك للتحقيق في ظروف موتي بطريقة مفتقرة إلى الكفاءة ومثيرة للشفقة.

وأخيراً وبعد أن توصلتم جميعاً إلى الاستنتاج الحتمي (وغير الصحيح بالطبع) غادرتم متجهين إلى الفندق. وتُركت وحيداً، فتصورت حينها أنني وصلت إلى نهاية مغامرتي، ولكن حدث شيء غير متوقع أظهر لي أن المفاجآت ما تزال في انتظاري، فقد سقطت صخرة ضخمة من أعلى ومرّت بجواري، ثم ارتطمت بالممر لترتد وتسقط في الهاوية. ظننت في البداية أنها حادثة عَرَضية، ولكني رفعت رأس بعدها فوراً فرأيت رأس رجل يطل من أعلى، وبالطبع كان معنى ذلك واضحاً، فلم يكن موريارتي وحده هناك بل كان مع شريك، وكانت نظرة واحدة إليه كافية لأعرف كم كان ذلك الشريك خطيراً. كان يحرس الطريق حين هاجمني موريارتي، وإذن فقد شهد موت صديقه وشاهد هروبي، فتوارى عن عيني بحيث لم أرَه، ثم دار بعد ذلك حول المنحدَرات سعياً لإنجاز ما فشل فيه زميله.

لم أستغرق وقتاً في التفكير بالأمر يا واطسون، فقد رأيت ذلك الوجه الكئيب ينظر من فوق الحافة مرة ثانية، وعرفت أن هذا معناه صخرة أخرى، فهبطت مذعوراً إلى الممر الذي صعدت منه، ولا أعتقد أنه كان من الممكن أن أقوم بذلك بهدوء واسترخاء، بل لقد كان الأمر أصعب مئة مرة من الصعود! ولكن لم يكن لديّ الوقت لأفكر في الخطر، حيث مرت صخرة أخرى بجواري وأنا معلق بيدي على حافة

النتوء، وقد انزلقتُ في منتصف الطريق، ولكني وصلت أخيراً إلى الممر بفضل عناية الله. بعد ذلك جريت لمسافة عشرة أميال فوق الجبال في الظلام، وبعد أسبوع وجدت نفسي في فلورنسا، وأنا متأكد أن أحداً لا يعرف مصيري.

لم أستطع الثقة إلا بأخي مايكروفت. وأنا مدين لك بالاعتذار يا واطسون العزيز، ولكن كان من المهم أن يعتقدوا أنني ميت، ومن المؤكد أنك لم تكن لتكتب مثل تلك الرواية المقنعة لنهايتي التعسة لو لم تعتقد أنت نفسك بأن الأمر حقيقي. لقد أمسكت بالقلم عدة مرات خلال السنوات الثلاث الماضية لأكتب لك، ولكني خشيت أن تدفعك مشاعرك الحميمة نحوي إلى ارتكاب عمل طائش يؤدي إلى كشف سري، ولهذا السبب ابتعدت عنك هذا المساء حين أوقعتَ كتبي، فقد كنتُ في خطر في ذلك الوقت، ولو بدا عليك أي مظهر من مظاهر الدهشة أو العاطفة لكان من الممكن أن يلفت الأنظار إلى هويتي ويؤدي إلى نتائج محزنة.

أما مايكروفت فقد اضطُررت إلى ائتمانه على سرّي حتى أحصل على المال الذي أحتاج إليه. لم تَجرِ الأمور جيداً في لندن كما تمنيت، فقد أفلت اثنان من أخطر أعضاء عصابة موريارتي من المحاكمة، فبات اثنان من أكثر أعدائي حقداً يترصّدان أخباري، فتسليت بزيارة لاسا عاصمة التبت وقضاء أيام هناك. لعلك قرأت أخبار الاستكشافات الرائعة لشخص نرويجي يُدعى سيغرسون، ولكني متأكد أنك لم يخطر ببالك مطلقاً أنك تتلقى أخباراً عن صديقك!

بعد ذلك سافرت عبر بلاد فارس إلى جزيرة العرب، وقمت بزيارة قصيرة ومثيرة للاهتمام إلى الخرطوم، وقد أرسلت نتائج تلك الزيارة إلى وزارة الخارجية. ثم عدت إلى فرنسا فقضيت بضعة أشهر في بحث علمي عن مشتقات قار الفحم أجريته في مختبر في مونتبلييْ بجنوب فرنسا، وعندما أنهيت ذلك البحث بشكل يرضيني وعرفت أن واحداً فقط من أعدائي موجود في لندن حالياً قررت العودة في وقت قريب، إلا أن الأخبار الغريبة للغز بارك لين عجّلت من تحركاتي، حيث إنها لم تجذب انتباهي فقط لوقائعها المتميزة، بل لأنها قد تقدم لي فرصة خاصة نادرة جداً.

لذلك عدت إلى لندن من فوري ورجعت إلى مسكني في شارع بيكر، حيث تسببت في إصابة السيدة هدسون بنوبة هستيرية عنيفة! ووجدتُ أن مايكروفت قد احتفظ بمسكني وأوراقي كلها كما تركتها تماماً، وهكذا وجدت نفسي في الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم في مقعدي الأثير وغرفتي القديمة، وكنت أتمنى فقط أن أرى صديقي العزيز واطسون في المقعد المقابل الذي طالما زيّنه بجلوسه فيه.

* * *

كانت تلك هي الحكاية الرائعة التي استمعت إليها في مساء أحد أيام شهر نيسان (أبريل)، والتي كانت غيرَ قابلة للتصديق لولا رؤيتي للهيئة الطويلة النحيلة والوجه الحاد المتحمس الذي لم أظن أنني سأراه ثانية.

وشعر هولمز بافتقادي الحزين له، فظهر تعاطفُه في طريقة تصرفاته وليس في كلماته. قال: العمل هو أحسن ترياق للحزن يا عزيزي واطسون، وعندي قضية لنعمل فيها معاً هذه الليلة، فإذا استطعنا التوصل إلى النتيجة الصحيحة فسوف نحقق العدالة في حادثة موت إنسان بريء.

توسلت إليه ليخبرني بالمزيد ولكنه لم يفعل، بل أجابني قائلاً: سترى وتسمع ما فيه الكفاية قبل الصباح. لدينا ثلاثة أعوام مضت لنناقشها، فليكفِك هذا حتى الساعة التاسعة والنصف من هذا المساء، حيث سنبدأ عندها في قضيتنا المميزة: مغامرة المنزل الفارغ.

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون قد استمتعت بقراءة جزء من هذه المجموعة القصصية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذا الكتاب (وسواه من الإصدارات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com